شرح قصيدة البردة للبوصيري

سندرج في السطور القادمة شرح بعض أبيات البردة، وهي من أجمل قصائد البوصيري:

- أمِنْ تذَكُّر جيرانٍ بذي سلمِ
مزجتَ دمعاً جرى من مقلةٍ بدمِ
أمْ هبَّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ
وأوْمَضَ البَرْقُ في الظلْماءِ مِنْ إضَمِ

يبتدئ الشاعر قصيدته بما اعتاد العرب أن يبتدئوا به قصائدهم منذ عصر الجاهلية وهو الحنين أو الوقوف على الأطلال ويبتدئ البوصيري بردته بالكلام عن سبب حزنه وسبب ألمه ويتساءل عن سبب نزول الدم ممزوجًا بالدمع من العينين ويقول هل يترى حصل ذلك الأمر بسبب الحنين إلى الأهل والجيران وهو يأتي الآن على ذكر بعض الأماكن مثل كاظمة وذي سلم وغيرها، ويُعرج بعد ذلك في كلامٍ له مكملًا تساؤله عن الأحوال الخارجية التي تجري في الدنيا وما سبب ومض البرق في ذلك الظلام وغيره.

- فما لعينيكَ إن قلتَ اكففا هَمَتا
ومَا لِقَلْبِك إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ

الآن يكمل الشاعر تساؤلاته ويقول مالي عندما للعينين التي أراهما كفا عن البكاء ويكفي هذا القدر من الحزن سالت الدموع أكثر من العينين ومالي لما أقول للقلب كفاك ذلك الذي تعيشه من وله الحب ووله الهويام زاد قلبك في الإغراق في ذلك وزدت عشقًا وحبًا وهويام حتى نك لتغرق في ذلك الهويام.

- أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أنَّ الحُبَّ مُنْكتِمٌ
ما بَيْنَ مُنْسَجِم منهُ ومضطَرِمِ

يُنوع الشاعر الآن في كلامه فينتقل من أسلوب الكلام بالخطاب إلى الكلام عن شخص غائب ويقول له هل تظنّ أن ذلك الحب سوف يخفى عن الناس وعن أهل الأرض كلهم وأنت عيونك تفيض بالدموع والعين لما تبكي والقلب لمّا يألم يزداد شعور الإنسان بالحزن والأرق وينعكس ذلك على جسده.

- لولاَ الهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعاً عَلَى طَلَلٍ
ولا أرقتَ لذكرِ البانِ والعَلَمِ

يزيد الشاعر في وصف ذلك الحب الذي يعانيه وذلك العشق والهويام فيقول لولا المشاعر الفياضة والعشق والهويام لما كان هناك دمع على طلل في يومٍ من الأيام أي لما وقف إنسان ما على آثار الديار وصار يبكي ويشكل الشوق والهويام، ولولا الحب لما رق إنسان ما لذكر مواضع اهله وأرضه وقال هنا البان والعلم لأنهما موضعان من مواضع الحجاز.

- فكيفَ تُنْكِرُ حُبًّا بعدَ ما شَهِدَتْ
بِهِ عليكَ عدولُ الدَّمْعِ والسَّقَمِ
وَأَثْبَتَ الوجْدُ خَطَّيْ عَبْرَةٍ وضَنًى
مِثْلَ البَهارِ عَلَى خَدَّيْكَ والعَنَمِ

الآن يُحاول الشاعر أن يُعرج في كلامه على الحب ويتحدث عنه حديثًا طويلًا عميقًا ويتساءل في خطابه الأول عن سبب نكرانه ذلك الحب وعن سبب نكرانه أنه عاشق هائم بين جدران الألم والحب، وكثيرة هي الشواهد عليك تلك التي تتكلم كلامًا طويلًا عن الحب فدموعه تشهد كثيرًا على ذلك الحب الذي ينكره، والوجنات أعياها الألم وأعياها الضنى وأعياها الحزن حتى صار الوجه بلون شاحب أصفر تعب جدًا، فها هو قاضي الهوى يحكم على ذلك الإنسان بأنه عاشق رغم تخبئته لتلك القصة.

- نعمْ سرى طيفُ من أهوى فأرقني
والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالأَلَمِ

الآن في اللحظة التي يرتاح الإنسان فيها من الألم ويعمد إلى لذته في النوم يكون هناك شيء آخر ينتظره ربما لا يسره، ذلك الشيء هو طيف المحبوب الذي زار العاشق في النوم وهذه الزيارة كلفت الإنسان ثمنًا كثيرًا فقد كلفته أن يأرق في ليله ويذهب النوم عنه ويعود أخيرًا إلى وحدته.

- يا لائِمِي في الهَوَى العُذْرِيِّ مَعْذِرَةً
منِّي إليكَ ولو أنصفتَ لم تَلُمِ
عَدَتْكَ حالِيَ لا سِرّي بمُسْتَتِرٍ
عن الوُشاةِ ولا دائي بمنحسمِ

يأتي الشاعر في هذين البيتين للكلام عن شيء قد تطرأ الشعراء للكلام عنه قبلًا وهو العذال واللائمون الذين لا يستمعون إلى حزن العاشق ولا إلى ألمه ولا إلى قصيجته بل يحملون عصى التقريع ويعمدون إلى ذلك المكان الذي يجتمع فيه لوّام الشعراء ليزيدوا عليهم من الكلام وينسبون لهم الضعف وقلة الحيلة.

- مَحَّضتَنْنِي النُّصْحَ لكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ
إنَّ المُحِبَّ عَن العُذَّالِ في صَمَمِ

ولكن مع ذلك كله إنّ الشاعر لا يتكلم عن أي شيء سوى عن حبه ومشاعره وذلك الكلام كله واللوم كله والتقريع كله لا يفيده في شيء ولا يزيد عليه شيئًا سوى ألم على ألمه وحزن على حزنه ومع ذلك هو سيحاول جهده ألا يستمع إلى تلك القصائد اللائمة في حبه وعشقه بل سيبقى لوحده.